الباب الثالث
ما بعد الثورة

الفصل الأول

النفى والإبعاد

□□□

الفصل الثانى

أزمة مارس ١٩٥٤

□□□

الفصل الثالث

الاعتقال

□□□

الفصل الرابع

أخلاق الفرسان

□□□

الفصل الخامس

على طريق الرحيل

الفصل الأول
النفى والإبعاد

اتسع نفوذ المجلس وقاد جمال عبد الناصر المجلس بطريقة المستبد المعكوسة التى أوضحها عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) حيث يقول «كلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه واحتاج إلى الدقة فى اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجدان واحتاج لحفظ النسبة بينهم فى المراتب بالطريقة المعكوسة وهى أن يكون أسفلهم طباعا أعلاهم وظيفة وقربا». وبالضبط سار عبد الناصر ومجلسه على هذا النهج من تقريب الأشرار وتوقيرهم وتنصيبهم على العباد والبلاد وإبعاد الأخيار ووصل الخلاف ذروته وقالها عبد الناصر للجميع «مفيش قعاد هنا»، ونفوا البطل يوسف صديق خارج البلاد كما فعلوا بخالد محيى الدين فيما بعد عندما اختلف معهم وتم نفيه بعدها بعام كامل تأخر فيه وضيَّع وقته ظناً منه بأنه يستطيع أن يغير هذه النفوس. لكن يوسف صديق كان أكثر رؤية منه فقد سبقه فى الخلاف بحوالى عام كامل

وهذا يرجع إلى طبيعة كل منهما كما أوضحها أحمد حمروش أحد الضباط الأحرار وهو يصف يوسف صديق بأنه أكثر صراحة وانفعالاً بينما كان خالد محيى الدين أكثر هدوءًا ومرونة. وهذا هو سبب تأخر استقالة خالد محيى الدين لمدة عام كامل بعد استقالة يوسف صديق..زاد الخلاف واتسعت الفجوة وهنا تدخل بعض الضباط للتهدئة ومحاولة الوصول لحل وسط حتى جاءت التعليمات بإبعاد يوسف صديق من المشهد وعدم رجوعه حتى إلى صفوف الجيش حتى لا يثير الضباط ويحمِّسهم ويجعل الجيش يطالب مجلس القيادة بالاستقالة اقتداءً بيوسف صديق والرجوع إلى ثكناتهم لذلك كانت فكرتهم هى إبعاد يوسف صديق عن المشهد تماماً وذلك عن طريق إبعاده إلى أسوان بحجة الراحة والاستجمام بها لفترة غير معلومة من الزمن وحيدا كى تهدأ أعصابه ويستريح جسمه وفكره من عناء السياسة وبالفعل أرسلوا له بعض الضباط فى قريته زاوية المصلوب التى عاد إليها بعد تقديم استقالته ليستريح بها ويكمل فيها بقية حياته كى يأخذوه إلى منفاه الجديد بأسوان وقبل يوسف هذا المنفى المجمَّل وذهب معهم دون صدام يذكر فى حين طلبوا هم منه التماس العذر لهم حيث إنهم كانوا من تلاميذه وضباط كتيبته التى قاد بها اقتحام

مقر القيادة العسكرية وأيضاً كانوا هم عند حسن ظنه ولم يعاملوا قائدهم البطل طوال مدة الإبعاد هذه إلا بكل احترام وتقدير، فقد تركوا له مكانهم فى الاستراحة حينما وجدوا زوجته قد حضرت معه واستأجروا مكاناً آخر بجواره للسكن فيه..

وفى هذه الرحلة القصيرة ظهر معدن الزوجة النفيس (بنت البلد) وهى تقف بكتف زوجها فقد أحست بالقلق عليه وراودها الشك والخوف على زوجها الحبيب فجهزت ملابسها وحقائبها ونوت السفر وما أن وصل يوسف صديق والضباط الحراس المرافقون له حتى وجدوا زوجته علية توفيق مصطحبة معها أولاده وفى انتظارهم فى محطة أسوان فقد سبقتهم بالقطار إلى هناك حيث عرج يوسف ورفاقه على مديرية بنى سويف أولاً ثم سافروا منها إلى أسوان.

اجتمعت الأسرة فى منفاها بأسوان وبعدها مباشرةً تم القبض على زوج ابنته الأستاذ «محمود توفيق» كنوع من الضغط عليه للتنازل عن مبادئه وأفكاره لكنهم لم يكونوا قد فهموا يوسف صديق حتى الآن وأظنهم لم يفهموه حتى بعد مماته.

مكثت الأسرة حوالى شهرًا ونصف الشهر فى إحدى الاستراحات الحكومية ثم عادت للإقامة الجبرية والحراسة

المشددة فى منزلها بحلمية الزيتون ومن الغريب الذى يحكيه ابنه حسين يوسف صديق أن والده بعد سنوات فوجئ بخطاب من هذه الاستراحه الحكومية تطالبه بثمن الإقامة التى قضاه فيها فأرسل يوسف الخطاب إلى جمال عبدالناصر قائلا: «منذ متى يدفع المعتقل إيجار معتقله.. أظنك أولى بهذا الأمر منى». ورجعت عائلة يوسف إلى بيتهم بحلمية الزيتون بالقاهرة وذلك للالتحاق بالدراسة لأن الإجازة كانت قد انتهت وتركوا يوسف وحيدا ولكنه مع الضغط والإصرار استطاع أن يلحق بهم بعد أسبوعين بالقاهرة حيث كان قرار النفى فى انتظاره فقد زاره جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بمنزله ونصحوه بالسفر إلى سويسرا بحجة العلاج فى مارس١٩٥٣م لحين تهدئة الأمور واستقرار البلاد والحفاظ على وحدة الصف وأخبروه أنه سوف يعود بعد ثلاثة أشهر ليمارس عمله بالجيش وبعد مضى ثلاثة أشهر كانت من أصعب الشهور التى قضاها يوسف صديق فى حياته وحيداً غريباً طريداً فى بلاد لا يعرف فيها أحدًا ولا يعرفه أحد ولا يشاور عليه أحد ويقول هذا هو البطل أو هذا هو منقذ الثورة لم يتوقع يوسف هذا المصير المؤلم من الغربة والتشرد والتهميش فقد عانى من ألم المنفى بكل ما تحمل الكلمة من معنى

لمنفى المعنوى والمادى وبعد تحمل هذه الشهور الثلاثة الكئيبة فى عمر يوسف صديق طلب يوسف الرجوع إلى وطنه فظلوا يماطلون ويماطلون وفى النهاية رفضوا وأبلغوه أنه غير مرغوب فيه داخل مصر..

ثم بعد ذلك طلب أن يكون منفاه فى أى بلد عربى كى يخفف من حدة الغربة ولو القليل فعرضوا عليه على سبيل «إطعم الفم تستحى العين» أن يكون سفيراً فى الهند أو أن يوفروا له أى منصب دبلوماسى خارج مصر بشرط أن يبتعد عن مصر وسياستها وينسى أفكاره ويبيع مبادئه لكنه رفض بشكل قاطع ثم تم نقله إلى لبنان كمنفى عربى - كما طلب - وأثناء تواجده بلبنان دبر عبد الناصر حيلة ماكرة لزوجته علية توفيق من خلال جهاز مخابراته فقد اتصلوا بها تليفونياً وقال المتحدث لها: «لقد مات يوسف صديق» ثم قفل الخط وانتهت المكالمة ليضعوا الزوجة المسكينة فى موقف لا تحسد عليه فقد دارت الشكوك فى صدرها وسريعاً ما اتصلت بكل القيادات التى تعرفها لتتأكد من صحة الخبر الذى سمعته ولكنها لم تجد من يروى ظمأها ويطمئنها على زوجها فقررت أن تتصل بجمال عبد الناصر فى بيته وبالفعل تلقت التليفون واتصلت به ولكن ردت عليها زوجة جمال عبدالناصر ليدخلا فى حوار جدلى أدى إلى مشادة كلامية

عرف بها عبد الناصر وأحس منها أنه وصل لهدفه من إثارة قلق علية توفيق على زوجها هنا تدخل بالجزء الثانى من الحيلة الماكرة وعرض على الزوجة علية توفيق هى وأولادها السفر إلى زوجها فى لبنان للاطمئنان عليه والإقامة معه ومساندته فى هذه الفترة الصعبة من حياته فما كان من علية توفيق إلا أن وافقت على هذا العرض للاطمئنان على زوجها خصوصاً بعد ما سمعت الكثير من الاشاعات عن اغتياله فى هذه الفترة وبالفعل ذهبت لزوجها يوسف صديق فى لبنان وبذلك يكون قد ضرب عبد الناصر عصفورين بحجر واحد. فقد استراح من علية توفيق ونشاطها السياسى المعارض فى مصر وفى نفس الوقت أرسل إلى يوسف صديق عائلته معه فى منفاه عسى أن تُشْعِره بالاستقرار وتقبل الوضع الحالى على ما هو فيه ولكن هيهات فيوسف صديق شخصية صعيدية عنيدة رفض الاستسلام للنفى وعاد سراً إلى مصر وذهب إلى قريته الصغيرة زاوية المصلوب ليبقى مختبئاً بها لفترة قصيرة وكان يداعب زوجته فى هذه الفترة بعد رجوعه سراً ويقول «كانوا يريدون أن يدفنونى فى تاج محل بالهند لكنى رفضت فأنا لن أدفن إلا فى قريتى زاوية المصلوب» ولم يخبر أحدا بعودته إلا أقاربه وبعض أصدقائه المقربين كمحمد نجيب فبمجرد نزوله إلى مصر أرسل إليه خطابًا يعلمه بقدومه وأنه يمكث فى قريته فقد

كان بين الاثنين مودة ومحبة ولدتها سنوات الجيرة فى حلمية الزيتون وأيضاً تقارب آراء ووجهات نظر ولدتها مبادئ الإيمان بالحرية والديمقراطية.

وفى أثناء هذه الفترة بزاوية المصلوب عقب هروبه من المنفى ببيروت علم عبد الناصر بهروبه وإقامته بالقرية فضرب عليه الإقامة الجبرية وجاء مأمور مركز الواسطى ليبلغه بأن جمال عبد الناصر وزير الداخلية قد فرض عليه الإقامة الجبرية بمنزله بالقرية وعليه الالتزام..

فحزن يوسف صديق أشد الحزن بل حزنت القرية كلها وانتشر رجال وشباب القرية يواسون عزيزهم يوسف صديق ويساعدون أصدقاءه المتنكرين الذين جاءوا ليزوروه سراً بعيداً عن أعين رجال البوليس فانتظروهم على كبارى البلد وأدخلوهم من داخل الغيطان وألبسوهم ثياب الفلاحين حتى يستطيعوا أن يصلوا للبطل يوسف صديق دون مشاكل ودون أن يعرفهم أحد وعلى الرغم من ذلك فقد استعدت القرية بالكامل للدفاع عن ابنها يوسف صديق بالسلاح حتى ولو كلفها ذلك الدم ولكن مرت الأمور بهدوء ودون مشاكل ولم يلبث أن انتهت الإجازة الصيفية وبدأت الدراسة فانتقل هو والأسرة إلى بيته فى حلمية الزيتون ليعيش تحت الإقامة الجبرية

وحراسة مشددة من البوليس الحربى جعلت تحركات البيت كله إن وجدت تكون بحساب.

وفى هذه الفترة زاره الكثير من الضباط لمحاولة التقريب ووأد الفتنة لكنه قَبِل أى حوار دون التنازل عن أى مبدأ، ولذلك باءت كل المفاوضات بالفشل وفى أثناء فترة النفى خارج البلاد سطر الشاعر يوسف صديق هذه الفترة فى قصيدته «من الجنة» قائلا:

أنا من بلاد رواها النيل فى كرم
وفى وفاءٍ كساها أجمل الحلل
فيها الجمال وفيها السحر من قدم
كم أوقعت فى شراك الحب من بطل
بشوشةٌ فى وجوه الضيف تسعدهم
فيها الحياة وتبكى كل مرتحل
حتى لقد ظن بعض الغافلين بها
سوء الظنون وقالو إن تطب تنل
فأبعدونى إليكم ألف مغفرةٍ
لأهل مصر وإن هم شوهوا عملى
يا أخت إنى شهيدٌ جئت جنتكم
هل فى الجنان يداوى الداء بالشعل

أجر الشهيد سألت الحسن فى وله
وفى الجنان نعيمٌ غير مبتذل
لا تحرمينى رضاب فى عذوبته
شىء من النيل فى طيف من الأمل
يامصر إنى ونار الشوق تفتك بي
على البعاد لأدرى أن حبك لي
فمن فتاك الذى إن سل صارمه
حل القضاء به فى أبرع الحيل
إن الجلاء الذى تبغينه أربٌ
يُنال بالسيف لا يرجى من الدول
فلا يغرنكِ وعدٌ لا وفاء له
كم من خصومك من لؤم ومن مطل
لسوف يأتيكِ يوم تهتفين به
يا للرجال وأين اليوم لى رجلي
لبيك يا أم إنى غير مبتعدٍ
إلا لأكفيك شر الدس والدجل
أنا الوفى الذى لم يثنه دمه
ينساب من صدره عن يومك الحفل
لم يكفنى شرفاً أن كنت شاهده
بل كنت فيه فتى فتيانه الأول

الفصل الثانى

أزمة مارس ١٩٥٤

نجح الانقلاب الذى أيده الشعب بسرعة فائقة ووقف بجانبه لكى يتحول إلى ثورة تسطر فى تاريخ مصر خصوصاً عندما علم بمبادئهم التى أعلنوها فى بداية حركتهم والتى كانت كالتالى:

– القضاء على الاستعمار والجلاء الفعلى لكل جندى أجنبى من مصر.

– القضاء على الإقطاع بكل صوره.

– القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم.

– بناء جيش وطنى قوى يدافع عن كل شبر من أرض الوطن ويقف فى وجه أى معتدٍ.

– تشييد حياة ديمقراطية جديدة على أسس حديثة وسليمة.

– العمل على إقامة عدالة اجتماعية داخل المجتمع أعجب الشعب بهذه الشعارات الرنانة والمبادئ الوهمية، فلم يكن يتصور أن هذا كله كلام على ورق ربما لم يقرأه حتى الكثير من الضباط الأحرار أنفسهم.

خُدع الشعب وأعجب بشعار «ارفع رأسك يا أخى» وقَبِلَ

الانقلاب وأيد مجلس قيادة الثورة بكل قوته حتى ظهرت ملامح الديكتاتورية فقد حل المجلس الأحزاب وألغى الدستور وأعلن فترة انتقالية يمهد بها لحياة عسكرية طويلة الأمد وأصدر قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين، وبدأ الكلام يكثر عن فساد الضباط والأموال السرية والتمهيد لتكوين دولة المخابرات والفضائح الجنسية والمحسوبيات والرشاوى وغيرها وغيرها..

ثم جاءت القشة التى قصمت ظهر البعير وهى استقالة محمد نجيب الأولى التى أعلن المجلس قبولها فى ٢٦ من شهر فبراير على لسان صلاح سالم فى بيان ركيك اللغة بذىء الأسلوب سطحى الأسباب كل هدفه التقليل والتشويه لشخص نجيب مما جعله مادة سخرية للشعب وبالطبع لم يصدق الشعب أى حرف مما قيل فيه بل يذكر خالد محيى الدين أنه سمع أمام أحد المحال رجلا بعد سماع البيان يقول «دول طلعوا ولاد كلب» وجاء فيه أيضاً استمرار مجلس القيادة برئاسة جمال عبد الناصر وتوليه رئاسة الوزراء أيضا..

وغضب ضباط المدفعية بالجيش أشد الغضب وثاروا فى وجه المجلس وأبلغوه برفضهم وطالبوا بعودة نجيب وعودة الحياة النيابية، وهكذا غضب الشعب وغضب رجال بالجيش وتوحدت

القوى الوطنية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وخرج الشعب في مظاهرات مناديًا بإلغاء هذه القرارات التعسفية الظالمة واهتزت القاهرة بزئير هؤلاء المخلصين الخائفين على مستقبل مصر وحدث الانقسام المتوقع في صفوف الجيش بين مؤيد ومعارض لنجيب والشعب كله وقف مع نجيب فما كان للمجلس من سبيل إلا أنه وافق على سحب هذه القرارات تهدئةً للشعب الثائر ومكراً وتربصاً به وبالفعل أعلن المجلس بياناً نصه:

«حفاظا على وحدة الأمة يعلن مجلس قيادة الثورة عودة اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيساً للجمهورية وقد وافق سيادته على ذلك» فرح الشعب أشد الفرح بهذا القرار وخرج في مظاهرات احتفالية بعودة نجيب والإحساس بوضع أول قدم على طريق الديمقراطية ومهنئين لانتصار الديمقراطية في هذه الجولة ولكن حاول البعض إفساد الفرحة كما يحكي محمد نجيب في مذكراته:

«وفي ذلك اليوم خرجت مظاهرات ضخمة من جامعة القاهرة قاصدة ميدان الجمهورية وكان المتظاهرون يهتفون بحياتي وحياة الديمقراطية وردد بعضهم هتافات معادية لمجلس قيادة الثورة فوقعت اشتباكات بينهم وبين رجال الأمن والبوليس الحربي

بقيادة البيكباشى أحمد أنور الذى كان شديد القسوة والعنف مع المتظاهرين وأطلق رجال الأمن النيران فأصابت البعض وقبضوا على البعض الآخر وكان من بينهم عدد من الإخوان الذين ازداد نشاطهم بعد حل جماعتهم» وهذا الكلام يؤكد مدى حقد ضباط معسكر الشر على نجيب وأعوانه وعلى الحياة الديمقراطية بصفة عامة.

المهم انتهت المظاهرات وأسفرت عن قرارات ديمقراطية تضع مصر على أول الطريق الصحيح لتنطلق نحو آفاق الحرية والديمقراطية – لو كانت نفذت – وهى قرارات ٥ مارس التاريخية والتى كانت كالتالى:

١ – عقد جمعية تأسيسية منتخبة بطريق الاقتراع العام المباشر على أن تجتمع خلال شهر يوليو ١٩٥٤م ويكون لها مهمتان:

أ) مناقشة مشروع الدستور وإقراره.

ب) القيام بمهمة البرلمان إلى الوقت الذى يتم فيه عقد البرلمان الجديد وفقا لأحكام الدستور الذى ستقرره الجمعية التأسيسية.

٢ – حتى تتم الانتخابات فى جو من الحرية تقرر إلغاء الأحكام العرفية قبل إجراء الانتخابات بشهر.

٣ – كما تقرر إلغاء الرقابة على الصحف والنشر.

٤- أن يستمر مجلس قيادة الثورة فى ممارسة سلطات السيادة لحين اجتماع الهيئة النيابية الجديدة.

لكن الفرحة لم تكتمل فقد جاء الغراب ليقتنصها، فقد قيل أن عبد الناصر بعض التفجيرات وأثار بها الفوضى والقلاقل فى المجتمع ليشعر الشعب بأنه فى حاجة للحماية وأن البلاد مازالت غير مستقرة وهذا ما اتهمه به عبداللطيف بغدادى بأنه هو الذى صنع تفجيرات السينمات والمسارح.

أيضا قيل أن عبدالناصر قد اتفق مع بعض قيادات العمال بل اشتراهم بالمال مثل صاوى أحمد صاوى الذى باع نفسه بمبلغ أربعة آلاف جنيه اشترى بها بعض الأفدنة من الأراضى الزراعية بقريته قمن العرروس بمركز الواسطى مقابل حشد العمال وخروجهم فى مظاهرات تنادى ببقاء مجلس قيادة الثورة فى قيادة البلاد وتفعيل الإضرابات بالمصانع وقد ذكر خالد محيى الدين فى مذكراته ما هو نصه «إذن أدرك عبدالناصر أن خطة ٥ مارس لايمكن تنفيذها مع استمرار احتفاظه بالسلطة وبدأ فى الالتفاف على هذه الخطة وترتيب الأمر للاتجاه فى مسار مضاد تماما».

وطوال هذه الأيام انهمك عبد الناصر فى تنفيذ خطته فحشد أكبر قدر من ضباط الجيش حوله وبالتحديد حشدهم حوله على

أساس رفض الديمقراطية وأنها ستؤدى للقضاء على الثورة وبدأ عن طريق طعيمة والطحاوى فى ترتيب اتصالات بقيادات عمال النقل العام لترتيب الإضراب الشهير..

ولك عزيزى القارئ أن تتصور إضراباً لعمال النقل تسانده الدولة وتحرض عليه وتنظمه وتموله.. وأتوقف تحديداً أمام كلمة «تموله» هذه. فلقد سرت أقاويل كثيرة حول هذا الموضوع لكننى سأورد هنا ما سمعته من عبدالناصر بنفسى فعند عودتى من المنفى التقيت مع عبدالناصر وبدأ يحكى لى ما خفى عنى من أحداث أيام مارس الأخيرة وقال بصراحة نادرة : لما لقيت المسألة مش نافعة قررت أتحرك وقد كلفنى الأمر أربعة آلاف جنيه».

انتهت شهادة خالد محيى الدين ولم ينته التاريخ.. وبالفعل تمت المكيدة بنجاح وعمت الإضرابات وخرج الغوغاء والعملاء ورجال البوليس والمخابرات وكثير من الجهلاء المغرر بهم فى شوارع القاهرة ينادون بسقوط الديمقراطية والرجوع إلى القرارات الديكتاتورية والهجوم على مجلس الدولة وانتصر معسكر عبدالناصر ومن بعدها اعتقل كل من نادى بالحرية والديمقراطية كالبطل يوسف صديق وغيره من أطياف الشعب وبدأ التأسيس للحكم العسكرى الذى قيدنا طوال هذه السنين وتم تصفية

المعارضين واحدا تلو الآخر إما بالنفى أو الاعتقال وأحيانا أحكام الإعدام المجانية، فقد جاء الدور على الضباط الأحرار أصدقاء الكفاح فبدأ بعبدالمنعم عبدالرءوف ومعروف الحضرى وأبو المكارم عبد الحى وحسين حمودة وهم من الإخوان المسلمين ثم لحقهم من مجلس قيادة الثورة بخالد محيى الدين بالنفى ثم باقى الضباط الأحرار المخلصين من بعدهم ظلماً وزورا ولم يسلم الشيوعون أيضاً من الأذى فقد أخذوا أماكنهم فى عمبوكات المعتقلات وكذلك لم تسلم الصحافة والأقلام الحرة من بطشهم. وثبت الحكم العسكرى قدمه بمصر ودور يوسف صديق فى هذه الأزمة كان قويا على الرغم من هذه الحراسة المشددة إلا أنه شارك وبقوة فى أزمة مارس ١٩٥٤م بآرائه المناهضة للديكتاتورية والمؤيدة لمطالب الشعب فقد أراد مقابلة صحفى فى جريدة المصرى يدعى «أمين عبدالمؤمن» ليجرى معه حوارًا صحفيًا يقول فيه آراءه وينشر من خلاله اقتراحاته والتى كانت تمهد للحكم المدنى عن طريق الديمقراطية كما ذكرنا قبل من تكوين الحكومة الائتلافية إلى عودة البرلمان مروراً برجوع الأحزاب وغيره وغيره..

وفعلاً استطاعت إحدى بنات يوسف صديق مقابلة الصحفى سراً وإدخاله إلى البيت المحاصر بشكل سرى وتم عمل الحوار

ونشر به الخطاب الذى أرسله يوسف صديق إلى محمد نجيب محتوياً آراءه واقتراحاته لحل الأزمة وكان نصه كالتالى:

كتب مندوب الجريدة يقول:

«زار القائمقام أركان حرب يوسف صديق عضو مجلس قيادة الثورة سابقاً السيد الرئيس اللواء محمد نجيب وحدثه فى الأوضاع الراهنة ثم أرسل لسيادته كتابا برأيه فى حل الموقف هذا نصه:

السيد رئيس الجمهورية ورئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكرى العام لجمهورية مصر البرلمانية السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فلا شك أنكم تقدرون مدى المسئولية التى أتحملها معكم أمام التاريخ عن مصير هذه البلاد نتيجة للعمل الإيجابى العنيف الذى قمت به فى يوم ٢٣يوليو سنة ١٩٥٣م، والذى لا أستطيع أن أفلت من مسئوليته حتى بعد استقالتى من مجلس قيادة الثورة فى فبراير سنة ١٩٥٣م فالتاريخ صارم فى حسابه.

ولا يسعنى وأنا أشعر بهذه المسئولية وأرى ما يجرى فى هذه الأيام الأخيرة من أحداث أن أتخلف عن أداء واجبى نحو هذا الوطن بعرض ما أراه كحل للأزمة الشديدة التى تعانيها البلاد فى هذه الظروف العصيبة حتى أكون قد أديت واجبى كاملاً

نحوكم كزملاء يتحملون مسئولية ضخمة أمام التاريخ ونحو البلاد التى أصبحت فى حاجة ماسة إلى علاج عاجل حاسم تستقر به النفوس وتهدأ الأعصاب وتنام الفتنة التى تطل برأسها على الشعب.

وإنى أعرض رأيى على الوجه الآتى:

١ - إن حال البلاد الآن أشبه بحال المريض ويحاول كل مخلص من أبنائها أن يهتدى إلى العلاج الناجح وأن يهدى إليه الآخرين فإذا طال الجدل فى هذا الموقف دون الوصول إلى العلاج تعرضت حياة المريض إلى خطر محقق. ليس أخطر منه إلا أن يجرعه السم بدل الدواء.

٢ - لايمكن الوصول إلى العلاج إلا بعد التأكد من معرفة الداء.

٣ - بالرجوع إلى التاريخ الذى عملناه من يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م إلى أن وصلنا لهذه الحالة نلمس الآتى:

(أ) بعد طرد فاروق من البلاد فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢م بدأ مجلس قيادة الثورة مناقشة الخطوة التالية التى كانت تتلخص فى هذا السؤال:

«لمن الحكم؟» وكان هناك رأيان فى الجواب عن هذا السؤال أما أحدهما فكان يرى دعوة البرلمان المنحل ليباشر سلطته الشرعية

وأما الآخر فقال بعدم دستورية هذا الحل ورأى أن نذهب مذهباً آخر ثم استقر الرأى على استفتاء قسم الرأى بمجلس الدولة مجتمعاً لهدايتنا إلى التصرف الدستورى السليم فأفتى بأغلبية تسعة أصوات ضد صوت واحد بعدم دستورية دعوة البرلمان وكان الصوت الواحد للدكتور وحيد رأفت..

(ب) سرنا على هدى هذه الفتوى ووصلنا إلى الحالة السيئة الراهنة وتبين أننا ضللنا الطريق .

(ج) بعد أن تبين لنا بوضوح أننا ضللنا طريقنا فلا يكون هناك تصحيح للوضع سوى أن نعود إلى حيث أشكل علينا الأمر فنصحح طريقنا.

٤- على ضوء هذه الحقائق نجد أن علاج الموقف ينحصر فى أحد حلين لا ثالث لهما:

(أ) دعوة البرلمان المنحل ليتولى حقوقه الشرعية.

(ب) تأليف وزارة ائتلافية تمثل التيارات السياسية المختلفة القائمة فعلا فى البلاد وهى الوفد والإخوان المسلمون والاشتراكيون والشيوعيون تشرف على إجراء انتخابات للبرلمان فى أسرع فرصة حتى تختار البلاد حكامها الشرعيين ويعود الجيش إلى ثكناته ليستعد للقيام بواجبه فى تحقيق أهداف الشعب فى حدود طبيعة عمله التى تنحصر فى الاستعداد لمعركة التحرير.

وأقترح أن يكون رئيس الوزارة المقترحة هو الدكتور وحيد رأفت الذى أكسبته حوادث التاريخ هذا الحق فلا تكون الرياسة محلاً للخلاف.

٥ – أى حل آخر غير هذين الحلين يكون بمثابة إعطاء المريض السم بدل الدواء فيكون مجافياً للديمقراطية التى تنشدها الثورة، ومن ثم يكون سبباً فى استمرار الاضطراب الحالى وما يترتب عليه من سوء النتائج.

٦ – إن استمرار الحكومة الحالية فى حكم البلاد لتصريف شئونها بعد أن أعلن الشعب رأيه فيها وكذلك استمرار الهيئات التى أنشأتها هذه الحكومة كلجنة الدستور مثلا هو استمرار للسياسة التى ثبت فشلها وخطرها، فما دامت الحكومة قد قررت أن تترك للشعب أموره فليس لها أن تفرض عليه أو تقترح له فإنما قمنا يوم ٢٣ يوليو لتمكين الشعب من أموره دون أن تكون لنا الوصاية عليه لاسيما بعد أن أعلن هو رغبته فى ذلك وإصراره عليه وإننى أسأل الله لكم السداد والتوفيق .

والله ولى التوفيق

القاهرة فى ١٧مارس سنة ١٩٥٤م

القائم مقام أركان حرب يوسف منصور صديق عضو مجلس قيادة الثورة سابقا.

وبالفعل نشر الحوار ونص الخطاب فى جريدة المصرى بتاريخ ٢٤ مارس ١٩٥٤م وبعد نشر الخطاب فى جريدة المصرى زادت الفجوة بين جمال عبدالناصر ويوسف صديق أكثر وأكثر وتم الاعتقال بعدها بأيام..

□□□

الفصل الثالث

الاعتقال

«إن رجالنا لا يبكون».. بهذه العبارة ودَّع البطل يوسف صديق ابنه الصغير حسين (٩سنوات) بعدما جاء رجال الجيش بأمر اعتقاله فى صباح يوم ١ أبريل ١٩٥٤م ليودعوه سجن الأجانب مع باقى شرفاء هذا الوطن فى هذه الحقبة التاريخية السوداء من تاريخ مصر..

ومن شدة نذالة هؤلاء المغرضين أنهم بعثوا للقبض على يوسف صديق أحد تلاميذه والذى ظل يعتذر ليوسف صديق وأبلغه أنه يمكن أن يرجع ويعتذر عن هذه المهمة ولكن البطل يوسف صديق ربت على كتفه وأفهمه أنه يعلم أنه مغلوب على أمره وأنهم يقصدون إهانته هو – أى يوسف صديق – ولكنه أبلغ تلميذه أنه غير غضبان منه وأنه عموماً أفضل من ينفذ هذه المهمة عن غيره..

وبعدما دخل يوسف صديق المعتقل فى أبريل ١٩٥٤م لحقت به زوجته فى مايو ١٩٥٤م ولبث فى السجن ١٤ شهرا قضاها أسيراً مريضاً وأُفرج عنه فى يونيو ١٩٥٥م وأثناء تواجده فى السجن رزقت ابنته بمولود جديد فسمته يوسف على اسم جده

فحزن أشد الحزن على عدم تمتعه بالنظر إلى حفيده المسمى على اسمه وكتب قصيدة بعنوان «استقبال الصديق» وكانت كالتالى:

أقبلت تسعى من الظلماء للنور
فأسلمتك دياجيرٌ لديجور
أشرق بنورك فالأيام حالكةٌ
من هول ما اقترفت فينا من الجور
إن الرسالة فى أسمائنا لمعت
فحملتنا ثواب الهدى بالنور
ونحن نعلم أن السجن منزلنا
حتى تُدك حصون الإفك والزور
ونحن نعلم أن الموت موردنا
نلقاه فى الله فى بشرٍ وتكبير
جرد حسامك فالميدان مفتقدٌ
سيفاً يضىء به فى كف تحرير
والحق بقومك أسرع إنهم سبقوا
وخذ مكانك فى ركب المغاوير

تم الإفراج عن البطل يوسف صديق فى يونيو ١٩٥٥م لكنه ظل

تحت تحديد الإقامة هو وأسرته وخاصة زوجته «علية توفيق» أو «الزوجة العقربة» من وجهة نظر جمال عبد الناصر الذى وصفها هذا الوصف لأحد أصدقاء يوسف صديق وأوصاه أن يطلقها ويعود إلى رفقة عبدالناصر!

لكن بالطبع كانت الاجابة بالثبات على المبدأ..

وظل تحديد الإقامة على الأسرة حتى سنة ١٩٥٦ وعلى الرغم من ذلك لم يثنه هذا عن الدفاع عن الوطن ليقود المقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثى فى عزبة النخل التى انتقل إليها بعد الاعتقال ليعيش مع زوجته علية توفيق التى خرجت أيضاً بعده من المعتقل بعدما رفض يوسف صديق الخروج وحيداً بدون زوجته وطلب خروجها من المعتقل قبله لكنهم وعدوه بأنها ستخرج بعده مباشرةً وبالفعل حدث..

وفى المعتقل سجل يوسف صديق بعض ألوان التعذيب والإهانة التى تعرضت لها كل قوى المعارضة بلا استثناء ومنها ما ذكرناه سابقا وما سرده يوسف صديق لابنته فى إحدى الزيارات عن قصة هنداوى دوير وزوجته.

وفى فترة المعتقل قد سجل أيضاً البطل الشاعر هذه الأبيات إلى جمال عبدالناصر فى قصيدة بعنوان «فرعون» قال فيها:

ألا أيهــذا الـدعـى اللعيــن ألا أيهــذا الشقــى الحـــرون
لبســت المســوح وضللتنــا ولما حكمـت كشفـت الفتــون
أفرعـون مصــر وجبــارهــا صحوت لها مـن وراء القـرون
وناديـت فى النـاس إنى إلــه وأنتـم عبيدٌ ولـى تسجــدون
ولكــن فـرعــون دانت لــه عــروشٌ وعرشـك واهٍ مهيــن
ففـى أرض مصـر غـزاة طغـاة بشعبـك فرعـوننـا يعبثــون
يعيثــون فينــا فساداً وبغيــا وكـم ينهبــون وكــم يقتلــون
سجـنت النسـاء ولـم تحـترم وقار الشيوخ وطـول الذقــون
أعرضى يبـــاح ويلقــى بــه على ناظريك بقاع السجون ؟
أكل رجالى غــدرت بهــم ؟ أكـل رجالى من المجرميــن؟
ولـــا وقعــت وعبـد الحكيـم بأســر رجالــى ومـا يعلمـون
وقد كنت مختفياً فىَ ثيــاب تباعـد عنــك مثــار الظنــون
فأنقـذت روحيكما من هلاك ورحت بروحى ألاقـى المنـون
أحقق فـى اللــه مــا أبتغــى ومـــا كـنت أحسبكم تبتغـون
غدا تلتقى يا جمـال الوجــوه وتعرف قــدرك مــاذا يكــون

الفصل الرابع

أخلاق الفرسان

يوسف صديق وتأميم القناة

ديليسبس.. كلمة من سبعة أحرف لكنها ليست كالكلمات العادية وإنما هى كلمة من قاموس كلمات الثورة كأختها «نصر» التى كانت كلمة سر ثورة يوليو ولكن هذه المرة كانت «ديليسبس» هى كلمة سر التحرك لتأميم قناة السويس الكلمة التى نطق بها عبدالناصر فى ١٩٥٦ والتى كانت مفتاح تأميم قناة السويس كلمة لن ينساها الشعب المصرى وبقيت خالدة فى تاريخه فهذه الكلمة أيضاً هى التى هيجت مشاعر البطل يوسف صديق وألهبت حماسه ليتناسى الخلاف القائم بينه وبين جمال عبد الناصر ويسانده برأيه ويعلن مؤازرته له ودعمه لقرار تأميم القناة..

ووقع خبر تأميم القناة على الغرب كالصاعقة واضطربت آراؤهم وقراراتهم وبدأوا بإرسال المفاوضين لجمال عبدالناصر لعدوله عن هذا القرار وكان ممن أرسلوهم رئيس وزراء أستراليا فى ذلك الوقت «منزيس» والذى جاء مفاوضا مرهباً مهدداً من عقبات وويلات هذا القرار.

وما أن سمع يوسف صديق بأخبار هذه الزيارة حتى استشاط غضبا وثارت حميته الوطنية واشتعلت بداخله شعلة الشعر ليخرج قصيدته «إلى منزيس» والتى نشرت فى جريدة الجمهورية بتاريخ ١٩٥٦/٩/٣ والتى قال فيها:

رسول الغرب حيّ النيل واخفض
قوامـــك بالتحيـــة والجبينـــا
وحـيّ معالـم التاريـــخ واركـــع
تبـــرك بالقنـــال وطـور سينـا
إلى الوادى المقدس جئت فاخلـع
بـــه نعليـــك شـــأن المؤمنينـــا
وتمتـم بالســلام تكـن حصينـــا
وتحيـــا سالـــاً مـا دمـت فينـا
سعيـت إلى العريـن فكـن لبيبـــا
يخـــون اللـب مـن زار العرينـــا
رسول الغرب جئت فكن شهيـدا
وبلـــغ أهلـك الخبـــر اليقينـــا
ألســت تـرى الرجـال مدججينـا
علـى طـول القنـــال مرابطينـــا

وتلـــك نساؤنـــا هبَّـــت بكيـــدٍ
لهن ورحـن يحميـــن الحصونـــا
هنـــا شعـــبٌ وراء جمال مـــاضٍ
إلـــى أهدافـــه يقظـــاً أمينـــا
تطـــوع للجهـــاد علـــى ولاءٍ
لقائـــده وأقســـم لـــن يلينـــا
فقـــال للغاصبيـــن هنـــاك مهلا
فمـــا نيـــل المنـــى للغاصبينـــا
وتلـــك قناتنـــا ردت إلينـــا
ومـــا كنـــا لحـــق غاصبينـــا
ففيـــم أقمتـــم الدنيـــا علينـــا
وبتـــم ضدنـــا متـــآمـــرينـــا
رميتـــم سهمكـــم بالغـــدر حينا
وبالتضليـــل والبهتـــان حينـــا
زعمتـــم أننـــا الإســـلام يصحـــو
يهـــدد ديـــن عيســـى أن يبينـــا
فأوهـــى كيدكـــم سعـــى النصارى
بمصـــر إلى الهـــلال معانقينـــا

وأوهـــى كيدكـــم أنـــا وقفنـــا
وراء زعيمنـــا صفـــاً متينـــا
وللإســـلام صهـــرٌ فى النصـــارى
يولـــد بينهـــم عطفـــا ولينـــا
ومـذ كـــان الســـلام لنـــا إلهـــا
نهانـــا أن نقاتـــل معتدينـــا
وننصـــر كـــل مظلـــوم يعانـــى
حماقـــات الطغـــاة الظالمينـــا
تناصرنا الشعـــوب علـــى ســـلام
ويقنـــع حقنـــاً هنـــداً وصينـــا
تحيتنـــا «ســـلام» بيـــد أنـــا
نـذود عـــن الســـلام إذا دُعينـــا
ونسحـــق كـــل جبـــارٍ عنيـــدٍ
يهـــدد بالحـــروب الآمنينـــا

يوسف صديق والمقاومة الشعبية للعدوان الثلاثى

العدوان الثلاثى كان هو ردة الفعل التى لم يتوقعها أكثر المتشائمين أن تكون بهذه القوة ولكن كان لكل دولة من الدول

التى أقدمت على العدوان أسبابها الخاصة للمشاركة فيه، فمثلا فرنسا كان لدعم ثورة الجزائر بالسلاح والمال الأمر الذى هدد التواجد الفرنسى فى الجزائر خاصة وفى إفريقيا بصفة عامة أما إسرائيل فكان لديها الكثير من الأسباب ناهيك عن حلمها من النيل إلى الفرات فقد كانت تريد الاستحواذ أكثر وأكثر على أجزاء من الوطن العربى ومن فلسطين وسيناء خصوصاً بعد علمها بتوقيع صفقات سلاح بين مصر والاتحاد السوفيتى ستثرى مصر بالكثير من الأسلحة المتقدمة والمتطورة مما أثار حفيظة إسرائيل ودفعها للمشاركة فى العدوان.

أما بريطانيا فقد أخذتها العزة بالإثم فكيف لمصر أن تؤمم قناة السويس التى كانت تديرها وتدر عليها دخلا لا تحصل على مثله من أكبر مشاريعها فهاجت وماجت وأصرت على العدوان واتحد الظلم يدا واحدة على مصر وبدأت الدول الثلاث بالهجوم، ولكن بفضل الله لم يكتمل مخططهم اللعين بل باء بالفشل فلم تقف معهم أمريكا ولا الاتحاد السوفيتى بل هددت أمريكا بضرب لندن وباريس، وعلى الجانب الآخر فقد وقفت المقاومة الشعبية موقف الرجال ونشطت الفرق الشعبية فى جميع أنحاء البلاد عموماً وفى مدن القناة خاصة، وعلى الرغم من الحصار الذى

كان يعيشه البطل تحت الإقامة الجبرية فإن هذا لم يمنعه من المشاركة فى المقاومة الشعبية فقد ارتدى زيه العسكرى ونزل إلى الشارع كاسراً الإقامة الجبرية منظماً لأفراد المقاومة الشعبية ومدرباً لهم مستخدما خبرته الحربية وحسه العسكرى لينقلب المشهد بدلاً من حبيس إلى قائد للمقاومة الشعبية التى كانت أحد أسباب انسحاب العدوان الثلاثى عن مصر.

وفى الوقت الذى شمت فيه الكثير فى جمال عبد الناصر ولاموه على تأميم القناة بل زاد البعض ودعاه إلى الاستسلام وتسليم نفسه إلى السفارة البريطانية. وتركه الكثير ليقابل الأهوال وحده، فى نفس الوقت نجد بطلنا يوسف صديق يقف بجانبه موقف الأحرار ويتناسى مرة أخرى الخلاف ويناشده عدم الاستسلام والمقاومة حتى آخر قطرة دم..

وقد كان ذلك ظاهراً فى قصيدته «الله أكبر» التى كتبها ونشرت فى جريدة الجمهورية مساندا فيها جمال عبدالناصر وداعياً إلى المقاومة وعدم الاستسلام والتى قال فيها:

لحن من النيل السعيد ترددا
فتراقص الأرز البهيج وغردا
ودمشق رتلت النشيد فهيمت
صبا مشوقا فى عمان فأنشدا

تـلا الحجاز اللحـن فاهتزت له
صنعاً ودوى فى العـراق لـه صـدى
ومن الخليـج الفارسـى لأطلـس
شعـبٌ تغنـى بالنشيـد ورددا
هـذا نشيـد البعـث فاسمع لحنه
غنّاه شعب الضـاد حيـن توحـدا
اللـه اكبـر أذّن الفجـر فقـم
وارقب سنى النور من الشرق بـدا
الله اكبر بـددت شمـل الدجـى
مـن بعـد ليـلٍ كـان يبدو سرمدا
اللـه اكبـر والسـلام إلهنـا
بـات الطـريق إلى النعيـم معبـدا
فلكـل شعـب أرضـه بكنـوزه
يحيـا بهـا كريمـاً سيـدا
فاليـوم لاشعـبٌ تضيـع حقوقـه
بيـن الطغـاة ولا يـُرى مستعبـدا
الله اكبـر يـا (جمـال) جمعتنـا
والعهـد دون الحـق أن نستشهـدا

فاضرب وراءك أمـة إن تدعهـا
اتسابقت واستعذبت طعم الردى
أوجع خصوم الحق حتى يسلموا
رغم الأنوف بعدل حقك سجـدا
شعب العروبة قد أتاك مجندا
ووراءه شعـب السـلام مؤيـدا
وإذا الشعوب تحركـت بقلوبهـا
لكريهـة فالنصر بـات مؤكـدا
يا مصـر عهـد الله هـذا بيننـا
أن لا نلين وأن نكـون لك الفـدا
إنـا وعدنـاها إعـادة مجدهـا
فلتشهـد الدنيـا وموعدنـا غـدا

انتهى العدوان الثلاثى على مصر وعاد أهله إلى بلادهم خائبين وانتصر عبد الناصر سياسيا وشعبيا ورفعت الإقامة الجبرية عن البطل يوسف صديق وأسرته كنوع من رد الجميل على كرم الأخلاق الذى أظهره البطل يوسف صديق وقت الأزمات والذى لم يكن يتوقع منه فى حين تخاذلت أقلام الكثيرين وسكت البعض الآخر ليرى إن كان فيها مغنم فيكتب ويكن مع الرابحين وإن كانت خسارة لام وعاتب.

المهم رفعت الإقامة الجبرية ليكمل البطل بقية حياته بشيء من الحرية ولكنه تمنى الكثير والكثير لخدمة وطنه وشعبه ولكن للأسف لم يفسح له المجال للمشاركة فى أى صحف أو مجلات تصدرها الدولة ولم يسمح له أيضاً بأن يتقلد أى منصب عسكرى أو حتى أن يرتقى أى منبر فكرى أو أدبى يستطيع من خلاله خدمة بلده ومجتمعه وعاش بقية حياته يعانى مادياً ومعنوياً فقد عانى جسدياً من آلام العمود الفقرى الذى عاش به طوال حياته ولبس بسببه الجاكت الجبس ولكن هذه المعاناة التى فى سبيل الوطن كانت تهون أمام المعاناه المعنوية التى عاشها طوال حياته وأعتقد بعد مماته والتى تمثلت فى تهميشه وتهميش دوره التاريخى فى تاريخ مصر الحديثة.

□□□

الفصل الخامس
على طريق الرحيل

إعدام ديوان شعر

بعدما أُحيل البطل يوسف صديق إلى التقاعد وخصوصاً فى فترة ما بعد العدوان الثلاثى على مصر لم يكن يوسف صديق مرتبطاً بعمل ما ولذلك كان متفرغاً للقراءة والأدب والسهر الثقافى مع الأصدقاء، ومن هنا كانت فرصة جيدة له كى يجمع كل أشعاره من الصحف والمجلات والأوراق المهملة عنده ويدونها فى دفتر كبير احتفظ به وحافظ عليه وفى إحدى الليالى زاره صديقه الكاتب إبراهيم عبد الحليم ووجد معه هذا الدفتر الملىء بالأشعار فأخذه منه وأصر على طبعه ونشره من خلال دار النشر التى كان يمتلكها ولكن الفرحة لم تكتمل فقد شم رجال البوليس السياسى الخبر وعلموا بأن الديوان سينشر من خلال إبراهيم عبد الحليم فداهموا دار نشره واعتقلوه وصادروا الديوان وبعد فترة أفرجوا عن الكاتب إبراهيم عبد الحليم ولكنهم لم يفرجوا عن الديوان ونفذوا فيه حكم الإعدام..

وبعد وفاة البطل يوسف صديق استطاع ابنه حسين جمع الكثير من أشعار أبيه من الصحف والمجلات ومما يحفظه الأهل والأقارب ومما وجده فى أوراق أبيه وتم نشرها فى عام ١٩٩٩م فى ديوان بعنوان «ضعوا الأقلام».

النكسة والمرض

فى عام ١٩٦٧م قامت إسرائيل بحرب غادرة هزمت فيها الجيوش العربية وفى مقدمتها مصر وقد سماها المؤرخون المجاملون لنظام عبد الناصر نكسة ١٩٦٧ تخفيفا من وطأة كلمة هزيمة وتخفيفاً على الشعب من صدمة الهزيمة السريعة التى مُنى بها الجيش المصرى والذى كشفته على حقيقته أو بالأحرى كشفت بعض قادته الجدد على حقيقتهم وعدم اهتمامهم بالجيش والجرى وراء الممثلات والراقصات فى الملاهى والشقق المفروشة فقد قتل أو فقد من الجيش المصرى حوالى من ١٠ آلاف إلى ١٥ ألف جندى وكما نقل أمين هويدى عن كتاب الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية فى فترة ما بعد النكسة أن خسائر مصر من القوات الجوية كانت بنسبة ١٠٠٪ وخسائر القوات البرية كانت بنسة ٨٥٪ .

وانتهت الحرب باحتلال إسرائيل لسيناء ولم تكن هزيمة

١٩٦م مادية فقط بل كانت هزيمة معنوية أكثر منها فمنذ ذلك حين وشيء ما انكسر داخل البطل يوسف صديق وبدأ ذلك ظهر على جسمه فمرت عليه الأيام سوداء قاتمة فلم يتوقع ن الجيش المصرى العظيم وصل إلى هذه الدرجة من الضعف لى يد هؤلاء اللئام فحزن أشد الحزن على جيشه الذى تربَّى يه وربَّى فيه الكثيرين من الأبناء المخلصين لهذا الوطن والذين ان مصيرهم كمصير البطل بالإحالة للتقاعد وبدأت هذه الحالة النفسية السيئة تؤثر فيه بدنياً فمرض فى القلب وارتفاع نسبة لسكر بالدم وارتفاع ضغط الدم بالإضافة إلى مرضيه السابقين آلام لعمود الفقرى والتى ألزمته لبس الجاكت الجبس لمدة عشرين عاما ونزيف الرئة الذى لازمه طوال حياته. وزاد عليه المرض وبدأ يحاصره ويتمكن منه وفى إحدى زياراته المؤازرة والمساندة لجمال عبد الناصر بعد النكسة نصحه عبد الناصر بالسفر للعلاج فى الاتحاد السوفيتي وبالفعل فى أوائل سبتمبر من عام ١٩٧٠م أصدر عبد الناصر قراراً بسفر يوسف صديق للعلاج فى الاتحاد السوفيتي فى سنة ١٩٧٠م وبالفعل سافر للعلاج هناك بموسكو ولكن للأسف لم يستطع الطب الروسى تقديم أى شيء للبطل يوسف صديق لأن المرض لم يكن كما شخَّصوه هم فقط ولكنه

كان قد أصيب بالسل والسرطان كما عرف بعد ذلك فى رحلته العلاجية سنة ١٩٧٢م بلندن..!

كتابه: الإسلام والمسلمون فى الاتحاد السوفيتى

استغل يوسف صديق فترة علاجه فى الاتحاد السوفيتى واهتم بشئون الإسلام والمسلمين هناك وقرأ فى الاشتراكية ومدى مطابقتها للإسلام من منظور عملى كما يعتقد - كما ذكرنا من قبل - وألف كتاباً بعنوان «الإسلام والمسلمون فى الاتحاد السوفيتى»، وقد احتوى الكتاب على أربعة فصول كانت كالتالى:

- الفصل الأول يتناول مرحلة ما قبل الثورة الاشتراكية.
- الفصل الثانى يتناول المسلمين والثورة الاشتراكية.
- الفصل الثالث يتناول الحياة الروحية للمسلمين.
- الفصل الرابع يتناول شهادات واقعية.

وقد أهدى يوسف صديق الكتاب «إلى أرواح الذين سقطوا فى المعارك ليزيدوا من أرباح تجار الحروب.. إلى كل إنسان ضللوه بزخرف القول فحمل السلاح وراح يقتل نفسه أو أخاه الإنسان لصالح الشيطان. إلى الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا..».

وفاة عبد الناصر

آخر مهام عبد الناصر قبل وفاته كانت الوساطة لإيقاف أحداث أيلول الأسود بالأردن بين الحكومة الأردنية والمنظمات الفلسطينية فى قمة القاهرة فى ٢٦ إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م حيث عاد من مطار القاهرة بعد أن ودَّع صباح السالم الصباح أمير الكويت. عندما داهمته نوبة قلبية بعد ذلك وأعلن عن وفاته فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وتولى مصر بعده نائبه محمد أنور السادات. أثناء رحلة يوسف صديق العلاجية بالاتحاد السوفيتى سمع بخبر وفاة جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م فما منه إلا أن أظهر أخلاقه الكريمة فبعث ببرقية عزاء للسادات ومعها تأييد للسادات بل كتب قصيدة رثاء فى عبدالناصر يشعر من يقرأها بأن هذين الرجلين لم يختلفا أبداً وأن ما تم بينهما مجرد وجهات نظر وهذه هى صفات الرجال فى الظروف الحرجه فها هو يبكى صديقه ويرثيه بقوافيه الحزينة فى قصيدة بعنوان «دمعة على البطل» تم نشرها فى ذكرى وفاته ليطوى بها صفحة جمال عبد الناصر بحلوها ومرها وقال فيها:

أبـا الثـوار هـل سامحـت دمعى
يفيض وصوت نعيك ملء سمعـى

وكنـــا قـــد تعاهـــدنـــا قـــديمـــا
على ترك الدمـــوع لـــذات روع
وإن الخطـــب يحسم بالتصـــدى
لهـول الخطـــب فى سيـــف ودرع
ولكـــن زلـــزل الأركـــان منــــي
وهز تماسكـــى مـــن جـــاء ينعـــى
وفاتـك وأنت مـلء الارض سعيـا
وذكـــرك قـــائـم فى كـــل ربـــع
بكتـــك عيـون أهل الأرض حولى
فكيـف أصـون بيـن الناس دمعي
قضيت شهيـــد وحدتنـــا تقـــوى
روابطهـــا وتجبـــر كـــل صـــدع
فما للعـــرب فـــى الدنيـــا مكـــان
بغيـــر تماسـكٍ وبغيـــر جمـــع
رسمت لنا الطريق وسوف نمضى
علـــى هـــذا الطـــريق بغيـر رجع
سنمضـــى فى طريـــق الحـــق حتـــى
نطهِّـــر مـــن ثرانـــا كـــل صقـــع

وللعمـــال بالعمـــال نبنـــى
ونصنـع بالمصانـع خيـر صنـع
وللفـلاح بالفـــلاح نـــروى
صحـــارينا ونـــزرع خيـــر زرع
ففـــى العمـــال والفـــلاح درع
لثـــورات الشعـــوب وأى درع
جـزاك الله عنـــا كـــل خيـــر
ورواك الرضـــا مـن كـــل نبـــع

المرض والوفاة

وللبطل يوسف صديق مع المرض قصة طويلة انتهت بوفاته تبدأ من عام ١٩٣٤م حيث عانى من المرض فى عموده الفقرى حوالى عشر سنوات إثر تعرضه لحادث موتوسيكل فى بداية خدمته أدت إلى تسوس فى بعض الفقرات مما ألزمه وضع جاكتة من الجبس ثم حزامٌ حديدى حول ظهره لفترة أخرى ولم يكد يخلع جاكتة الجبس سنة ١٩٤٤م حتى أصيب بنزيف بالرئة اليسرى عام ١٩٥٠م أثناء خدمته بالسودان ونقل بالطائرة إلى المستشفى العسكرى بالقاهرة للعلاج لكن النزيف ظل يعاوده وفى ليلة الثورة قام يوسف بدوره الحاسم وهو يعانى من نزيف الرئة

هذا ولم يعالج منه علاجاً حاسماً حتى تطور فى النهاية إلى الإصابة بالسل والسرطان فى تلك الرئة مما أدى إلى استئصالها فى نهاية الأمر بلندن وظل يعانى منها حتى الوفاة وعقب الأحداث الجسام التى مرت به فى السجن له ولأسرته أصيب بمرض السكر وضغط الدم وفى سنة ١٩٧٠م سافر للعلاج فى موسكو وكان مرضه الظاهر فى ذلك الوقت هو السكر والإكزيما وتم الكشف عليه هناك والحقيقة أن مرضه العضال لم يكن فى السكر ولا الضغط ولا غيرهما ولم تكن هذه الحقيقة كما أظهرتها الفحوص بعد ذلك. وفى عام ١٩٧٢م سافر إلى لندن للعلاج وأخذ معه تقارير الأطباء الروس والمصريين عن حالته الصحية وما كادت المستشفى الإنجليزية تضعه تحت الفحوص حتى ظهرت المفاجأة وهى إصابته بورم فى الرئة اليسرى وبتحليل هذا الورم تبين إصابة هذه الرئة بمرضين من أخطر أمراض العصر وهما السل والسرطان وأن المرض قد تمكن من ثلث الرئة السفلى ولابد من استئصاله على الفور وأدخل إلى غرفة العمليات على وجه السرعة وأجريت له الجراحة الخطيرة التى تم فيها استئصال ثلثى الرئة .

ثم عاد إلى لندن مرة أخرة سنة ١٩٧٣م لتكملة العلاج بعد أن تمكن المرض منه لكن دون فائدة فعاد راقدا على فراشه بالقاهرة منتظرا للموت بشجاعة.

وفى مارس ١٩٧٥م رأى بعض تلاميذه ضرورة نقله إلى مستشفى المعادى للقوات المسلحة وبالفعل نقل من منزله إلى غرفة الإنعاش بالمستشفى حيث كان واضحاً أنه فى ساعاته الأخيرة ورحل البطل يوسف صديق عن عالمنا ليحلق فى عالم الأرواح فى ٣١ مارس عام ١٩٧٥م.

وانطوت صفحة من تاريخ مصر لم يشعر بها الكثير عندما فتحت.. ولا عندما أغلقت.

وقد ختم يوسف صديق حياته الأدبية بهذه الأبيات الرائعة التى يحاور فيها الزمان ويصارعه ويقول:

ختام تخدع يا زمان وأخدع
وأرى سرابا فى القفار وأتبع
عودتنى صبر الرسول على الأذى
علمتنى أن الحياة توجع
أبنى فتهدم يازمان معاقلى
وأجدد البنيان ثم تضعضع
لا أنت تخضع يا زمان لهمتى
أبداً..ولا أنا للنوائب أخضع

رحل البطل ونعته جريدة الأخبار فى يوم ١٩٧٥/٤/٢ بهذه الكلمات تحت عنوان: مصر تشيع جنازة يوسف صديق..

«شيعت مصر ظهر أمس ابنا من أبنائها الأحرار المرحوم يوسف صديق عضو مجلس قيادة الثورة.

سارت الجنازة من ميدان التحرير إلى جامع جركس. لف جثمان الفقيد بعلم جمهورية مصر العربية ووضع على عربة مدفع.

سارت فى مقدمة الجنازة موسيقات الجيش فى مجموعات رمزية من ضباط الجيش وطلبة الكلية الحربية ثم أكاليل الزهور من رئيس الجمهورية ومختلف أسلحة القوات المسلحة وأمانة الاتحاد الاشتراكى.

وتقدم المشيعين الفريق سعيد الماحى كبير الياوران مندوباً عن الرئيس محمد أنور السادات والرئيس السابق محمد نجيب وحسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية وأعضاء مجلس قيادة الثورة الذين على قيد الحياة والمهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب والدكتور عبد العزيز حجازى رئيس الوزراء والدكتور محمد حافظ غانم أمين الاتحاد الاشتراكى وعدد من الوزراء والضباط الأحرار.

وسارت الجنازة وسط الآلاف من أبناء الشعب الذين اصطفوا

على جانبى طريق الجنازة وفى ميدان التحرير وميدان طلعت حرب وحتى جامع جركس. وتم نقل جثمان الفقيد الكريم إلى مدافن الأسرة بالبساتين.»

جريدة الاخبار ٢/ ٤ /١٩٧٥

□□□